الفصل الرابع والاربعون بعد المئة

الاعراب والعربية واللحن

ولا بد لنا وقد تحدثنا عن لغات العرب وعن العربيـــة الفصحى من التحدث عن (الإعراب) لما له من صلة بها . فأقول الإعراب في تعريف علماء اللغـة : الإبانة والافصاح عن الشيء . يقال للعربـي : أعرب لي أي بـين لي كلامك . وأعرب الكلام وأعرب به بيّنه . روي عن النبي أنه قال : « الثيب تعرب عن نفسها » ، أي تفصح . وفي رواية أخرى : الثيب يعرب عنها لسانها ، والبكر تستأمر في نفسها . وإنما سُمّي الإعراب إعراباً لتبيينه وايضاحه . ومن هنا يقـال للرجل الـــذي أفصح بالكلام : أعرب . ويقال أعرب الأعجمي إعراباً ، أي أفصح وأبان . وعرّبه : علّمه العربية . « وفي حديث الحسن أنه قال له البَتّيُّ : ما تقول في رجل رُعِفَ في الصلاة ؟ فقال الحسن : إن هذا يُعرّب الناس ، وهو يقول رُعِفَ ، أي يعلمهم العربية ، إنما هو رَعُفَ » . وتعرب واستعرب أفصح ، قال الشاعر :

ماذا لقينا من المُستعربين ومن قياسِ نحوِهِمُ هذا الذي ابتدعوا [1]

وعرف الإعراب ، بأنه أن لا تلحن في الكلام . يقال أعرب كلامـه اذا لم

---

١ اللسان (١/٥٨٨ وما بعدها) ، (عرب) ، تاج العروس (١/٣٧٠ وما بعدها) ، (عرب) .

يلحن في الإعراب[1] . فربطوا هنا بين الإعراب واللحن . وذكـروا أيضاً « أن الإعراب الذي هو النحو ، انما هو الإبانة عن المعاني والألفـاظ »[2] ، « وانما سمي الإعراب إعراباً ، لتبيينه وإيضاحه »[3] ، « وعرب منطقـه أي هذبه من اللحـن »[4] . وروي عن (أبـي هريرة) قولـه : « أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه » ، والمراد بالغريب أن تكون اللفظة حسنة مستغربة في التأويل،لا يتساوى في العلم بها أهلها وسائر الناس . وقد عدّوا من ذلك في القرآن كله سبعمائة لفظة أو تزيد قليلاً[5] .

ورد في تأريـخ (الطبري) ان رجلاً من العباديين مرّ بجمع من المسلمين أصابوا جراباً من (كافور) فحسبوه ملحاً ، فأخذوا يلقون منه في طعامهـم ، فقال لهم : « يا معشر المعربين ، لا تفسدوا طعامكم ، فإن ملـح هذه الأرض لا خير فيه »[6] ، فاستعمل المعربين في معنى العرب ، ولعـل العباديين ، وهم نصارى الحيرة كانوا يطلقون على العرب الخلص معربين ، لوضوح لسانهم بالنسبة لغيرهم ممن كان لا يعرب على طريقة العرب الخلص من أهل البوادي .

وقد ذهب (ابن فارس) الى وجود (الإعراب) عند العرب العاربـة ، إذ يقول : « وزعم قومٌ أن العرب العاربة لم تعرف هذه الحروف بأسمائها ، وانهم لم يعرفوا نحواً ولا إعراباً ولا نصباً ولا همزاً »[7] . وقد رد على من أنكر وجود الإعراب عند العرب قبل الاسلام[8] ، وأورد حديثاً في ذلك ، إذ قال : « وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انه قال : اعربوا القرآن »[9] . وقد ورد ان (عمر بن الخطاب) ، وجه كتابـاً الى (أبـي موسى) الأشعري ، عامله على البصرة فيه : « أما بعد ، فتفقهوا في السنة ، وتفقهوا في العربيـة ،

---

١ تاج العروس (١/٣٧٢) ، (عرب) .
٢ تاج العروس (١/٣٧١) ، (عرب) ، اللسان (١/٥٨٩) ، (صادر) ، (عرب) .
٣ اللسان (١/٥٨٨) ، (عرب) .
٤ المصدر نفسه (١/٥٨٩) ، (عرب) .
٥ الرافعي (٢/٥٧) .
٦ الطبري (٣/٤٩٧) .
٧ الصاحبي (٣٥) .
٨ الصاحبي (٣٧ وما بعدها) .
٩ الصاحبي (٦٦) ، (اعربوا القرآن ، فاني عربي) ، الزينة (١١٧ وما بعدها) .

وأعربوا القرآن ، فإنه عربي ، وتمعددوا فإنكم معديون »[1] ، ووجه اليه كتاباً آخر فيه « أما بعد ، فتفقهوا في الدين ، وتعلموا السنة ، وتفقهوا في العربية ، وتعلموا طعن الدرية ، وأحسنوا عبارة الرؤيا ، وليعلم أبو الأسود أهل البصرة الإعراب »[2]. غير ان من العلماء من فسّر الإعراب في القرآن بأن المراد به معرفة معاني ألفاظه ، وليس المراد به الإعراب المصطلح عليه عند النحاة وهو ما يقابل اللحن[3] .

وعرف الإعراب ، بأنه : « الفارق بين المعاني المتكافئة في اللفظ ، وبه يعرف الخبر الذي هو أصل الكلام ، ولولاه ما مُيز فاعل من مفعول ، ولا مضاف من منعوت ، ولا تعجب من استفهام ، ولا صدر من مصدر ، ولا نعت من تأكيد. وذكر بعض أصحابنا أن الاعراب يختص بالإخبار . وقد يكون الإعراب في غير الخبر أيضاً ، لأنّا نقول : أزيدٌ عندك ؟ وأزيداً ضربت ؟ فقد عمل الإعرابُ وليس هو من باب الخبر »[4] ، فبالإعراب تميز المعاني ويَوقف على أغراض المتكلمين[5] . وأنواع الإعراب رفع ، ونصب ، وجر ، وجزم ، فالإعراب عبارة عن الحركات[6] . وقد جعل الإعراب من العلوم الجليلة التي اختصت بها العرب[7] . والإعراب في الواقع ، هو التعرب ، أي التكلم بالعربية وفق طريقة العرب الخلص في مراعاة أواخر الكلم ، ومراعاة التصرف الإعرابي .

والإعراب في نظري ، أن يتكلم الانسان بطريقة العرب في كلامهم ، وذلك بأن يبين وفقاً لقواعد لسانهم ، وقد عرفنا ورود لفظة (عرب) و (عربية) في النصوص الآشورية واليونانية والسريانية ، فالإعراب إذن من هذا الأصل ، أي من العربية ، ثم اطلق على النطق وفقاً لأساليب العرب في كلامهم ووفقاً لقواعد لسانهم .

---

١ كنز العمال (٥/٢٢٨) ، خورشيد أحمد فارق ، حضرت عمر (١٣٥) ، (القسم العربي) .
٢ حضرت عمر (١٣٩ وما بعدها) ، (القسم العربي) .
٣ السيوطي ، الاتقان (٢/٣) .
٤ ابن فارس ، الصاحبي (٦٦ ، ٧٧) .
٥ الصاحبي (١٩٠ وما بعدها)
٦ السيوطي ، الاشباه والنظائر (١/٧٢ وما بعدها) .
٧ المزهر (١/٣٢٧) .

وللوقوف على معنى : (العربية) ، يجب الرجوع الى ما ورد عنها في الأخبار. فقد ورد أن الرسول « دخل المسجد فرأى جمعاً من الناس على رجلٍ ، فقال: ما هذا ؟ قالوا : يا رسول الله ، رجل علاّمة ، قال : وما العلاّمة ؟ قالوا : أعلم النـــاس بأنساب العرب ، وأعلم الناس بعربية ، وأعلم الناس بشعر ، وأعلم الناس بما اختلف فيه العرب ، فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : هذا علم لا ينفع وجهـــل لا يضر »[1] . وهو خبر يرجع سنـــده الى (أبـي هريرة) .

ووردت اللفظة في روايات أخرى يرجع الرواة زمانها الى أيام الخليفة (عمر بن الخطاب) . فقد روي عن (عثمان المهـريّ) ، انه قال : « أتانا كتاب عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ، ونحن بأذربيجان يأمرنا بأشياء ، ويذكـــر فيها : تعلموا العربية فإنها تثبت العقل وتزيـد في المروءة »[2] . « وقد روي أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ : إن الله بريءٌ من المشركين ورسولِه ، بجرّ رسوله ، فتوهم عطفه على المشركين . فقال : أوَ بريء الله من رسوله ؟ فبلغ ذلك عمـــر بن الخطاب رضي الله عنه ، فأمر أن لا يقرأ القرآن إلا من يحسن العربية »[3] . وروي أن الخليفة المذكور ، كتب الى (أبـي موسى الأشعري) ، يوصيه ، فكـــان مما قاله له : « خذ الناس بالعربية ، فإنه يزيد في العقـــل ويثبت المروءة »[4] . ونسبت الى (عمر) رسائل أخرى ، ذكر انه وجهها الى عامله المذكور فيها : « أما بعد : فتفقهوا في السنة ، وتفقهوا في العربية ، واعربوا القرآن فإنه عربي وتمعددوا فإنكم معديون »[5] ، و « أما بعد : فتفقهوا في الدين ، وتعلموا السنة، وتفهموا العربية ، وتعلموا طعن الدرية ، وأحسنوا عبارة الرؤيا، وليعلم أبو الأسود أهل البصرة الإعراب »[6] ، أو انه قال : « تفقهوا في الدين ، وأحسنوا عبارة الرؤيا ، وتعلموا العربية »[7] . وفسّر (الحسن) العربية ، بأنهـا التنقيط ، أي

---

١ ابن قيم الجوزية ، اعلام الموقعين (١/٨٧) .
٢ صبح الأعشى (١/١٦٨) .
٣ صبح الأعشى (١/١٦٩) .
٤ اللسان (١/١٥٥) ، (مرأ) ، تاج العروس (١/١١٧) ، (مرأ) ، خورشيد أحمد فارق (١٤١) ، (النص العربي) .
٥ كنز العمال (٥/٢٢٨) ، خورشيد أحمد فارق (١٣٩) ، (النص العربي) .
٦ القفطي ، انباه (١/١٦) ، خورشيد أحمد فارق (١٣٩) .
٧ السجستاني ، المصاحف (١٤٢) .

ان ينقط المصحف بالنحو[1] . وذكر ان النبي قال : « عليكم بتعلم العربية ، فإنها تدل على المروءة وتزيد في المودة[2] . وروي أن عمر كتب : « أما بعد : فإني آمركم بما أمركم به القرآن ، وأنهاكم عما نهاكم عنه محمد ، وآمركم باتباع الفقه والسنة والتفهم في العربية »[3] ، و « مُر من قبلك بتعلم العربية ، فإنها تدل على صواب الكلام ، ومرهم برواية الشعر ، فإنه يدل على معالم الأخلاق »[4] .

وورد أن (عبدالله بن مسعود) كان يتعاطى العربية والشعر ، وقد كان يسأل في ذلك (زر بن حُبيش) ، وكان من أعرب الناس[5] . « قال عاصم : كان من أعرب الناس . وكان ابن مسعود يسأله عن العربية »[6] . وورد : « كان بعض اليهود قد علم كتاب بالعربية،وكان تعلمه الصبيان بالمدينة في الزمن الأول»[7].

وورد أن أهل الحيرة كانوا يتعلمون (العربية) في الكتاتيب ، وان لهم ديواناً يكتب بالعربية ، كما كان للفرس ديوان يدون الرسائل الى العرب بالعربية ، وأن أهل الأنبار كانوا يكتبون بالعربية ويتعلمونها .

وبعد ، فما هي تلك العربية التي كان (العلامة ؟) المزعوم يعلمها في المسجد وكان من أعلم الناس بها ؟ وما هي تلك العربية التي كان الخليفة يوصي حكّامه وأصحابه بأخذ الناس بها ؟ أو العربية التي علمها اليهود بيثرب ؟ عربية بمعنى الإبانة والافصاح وتحريك الفم تحريكاً كفيلاً بإخراج الحروف من مخارجها إخراجاً واضحاً ؟ أم عربية أخرى ؟ أم عربية الكتابة . أي تقليم الخط ، أم بالمعنى الذي دفع (أبا الأسود) على وضع العلامات لضبط الحركات ولصيانة الألسنة من الوقوع في اللحن . ولو سألتني رأيي ، لقلت لك حالاً : انها العربية الثانية. العربية الكفيلة بضبط الألسنة وتعليمها كيفية النطق الصحيح وفقاً لقواعد العربية ، أي الإعراب وتفسير معاني الألفاظ ، أي اللغة ، وأوضح دليل على ما أقوله ، ما جاء في الرواية المتقدمة من أن (عمر بن الخطاب) لما سمع خطأ الأعرابي

---

١ السجستاني ، المصاحف (١٤٢) .
٢ الفائق (٣/١٥٣) .
٣ خورشيد أحمد فارق (١٤٠) ، (النص العربي) .
٤ كنز العمال (٥/٢٤١) ، خورشيد أحمد فارق (١٤٠) .
٥ ابن سعد (٦/٧١) .
٦ الاصابة (١/٥٦٠) ، (رقم ٢٩٧١) .
٧ فتوح البلدان ، للبلاذري (٤٥٩) ، المعارف لابن قتيبة (١٩٢) .

الفاحش في قراءة الآية أمر « أن لا يقرأ القرآن إلاّ من يحسن العربية » ، ومن وصيته بأخذ الناس بالعربية،ومن قوله أيضاً : « تعلموا الفرائض والسنن واللحْن كما تعلمون القرآن » ، و « تعلموا اللحن في القرآن كما تتعلمونه ، يريد تعلموا لغة العرب في القرآن » ، أو : « تعلموا اللحن والفرائض فإنه من دينكم »[1] . فلم يكن خطأ (الاعرابي) هو خطأ في كيفية اخراج الحروف من مخارجها ، ولا في كيفية الافصاح وإبانة الكلم ، وإنما في جره رسوله ، وتوهمه عطفها على المشركين ، مما أخرج الآية الى عكس ما أراده الله منها . أي غلطه في اللغة ، ولهذا فزع الخليفة فحث الناس على تعلم العربية ، لتكون دليلاً لمن يتعلمها وهادياً له في صون لسانه من الوقوع في الخطأ ، وفي هذا الحث دلالة على وجود علم سابق عند العرب بكيفية حفظ الألسنة من الوقوع في الخطأ ومجانبة القواعد العامة. ويعود هذا العلم الى ما قبل الإسلام .

أضف الى ذلك ما ذكرته سابقاً من قول عمر : « أما بعـــد : فتفقهوا في الدين ، وتعلّموا السنة ، وتفهموا العربية ، وتعلموا طعن الدرية ، وأحسنوا عبارة الرؤيا ، وليعلم أبو الأسود أهل البصرة الإعراب »[2] . فإذا صح هـذا الخبر دل على وجود الإعراب في زمن عمر ، وعلى ان المراد من الإعـــراب الذي كلّف (أبا الأسود) أن يعلّم أهل البصرة به ، هو النحو ، أي قواعد صيانة اللسان من الوقوع في الخطأ في الكلام .

ولو تساهلنا فأخذنا (العربية) الواردة في قول (عمر) وغيره بالمعنى اللغوي الظاهر من اللفظة ، وهو الإفصاح والإبانة وإخراج الكلم حسب أصول النطق عند العرب ، فإن هذا المحمل يحملنا عـلى الذهاب الى وجود علم سابق ، كان الناس يراعونه ويسيرون بمقتضى اعتباراته وقواعده في كيفية النطق بالكلم ، ويسمونه : العربية .

ويتبين مما ذكره أهل الأخبار من أن (أبا الأسود) « كان أول من وضع العربية »[3] ، أن مرادهم من العربية المذكورة هذه العلامات التي تدل على الرفع

---

١ اللسان (٣٨١/١٣) ، (لحن) ، صبح الاعشى (١٤٨/١) .
٢ القفطي ، انباه (١٦/١) ، خورشيد أحمد فارق (١٣٩) .
٣ المعارف (٤٣٤) ، الصاحبي (٣٧) .

والنصب والجر والجزم والضم والفتح والكسر والسكون، تلك العلامات التي استعملها في المصحف ، وأن هذه الأمور لما توسع العلماء فيها بعدُ وسمّوا كلامهم نحواً سحبوا اسم النحو على ما كان قبل من أبي الأسود[1] . وبهذا المعنى نستطيع فهم ما ورد في الحديث والأخبار من وجوب الإعراب في القرآن . أي إظهار حركات الكلم عند القراءة . فالعربية ، تعني النحو . « ولما وضع أبو الأسود النحوَ وأطلق عليه لفظ العربية ... »[2] ، كان يقصد منه صيانة اللسان من الخطأ ، والنطق بصحة . فقد ورد ان الرسول قال : اعربوا القرآن ، أو اعربوا القرآن فإنه عربي ، وأن (عمر بن الخطاب) « قال : تعلموا إعراب القرآن كما تتعلمون حفظه[3] » ، وروي انه قال : « تعلموا النحو كما تعلمون السنن والفرائض »[4] .

وبهذا المعنى وردت (العربية) في حديثهم عن الشاعر (عدي بن زيد) العبادي ، فقد ذكروا انه تعلم (العربية) في كتاب بالحيرة حتى غدا من أكتب الناس بها ، فلما حذق ومهر فنه بالعربية ، أرسل الى كتّاب الفارسية ، فتعلم مع أولاد المرازبة[5] . وذكروا انه « قرأ كتب العرب والفرس »[6] ، إذ لا يعقل أن يكون مرادهم تعلم حروف الهجاء وحدها ، أو الخط ، أو مجرد معاني الألفاظ .

وقد تحدثت عن التنقيط عند أهل الكتاب في أثناء حديثي عن نشأة الخط العربي . ويظهر أن كتاب المصاحف ، لم يكونوا على اتفاق في موضوع العواشر ، أي تعشير القرآن ، والتنقيط والخواتم ، والفواتح ، والألفاظ المفسرة في المصحف ، بدليل ما ورد عنهم من اختلاف رأي في هذا الموضوع ، فمنهم من كان يأمر بتجريد القرآن من كل ذلك ومنهم من جوّز ، ومنهم من كره نقط القرآن بالنحو[7] .

---

١ ضحى الاسلام (٢/٢٨٧) .
٢ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١/٣٢٦) .
٣ الزينة (١١٧ وما بعدها) .
٤ البيان والتبيين (٢/٢١٩) .
٥ الاغاني (٢/٩٦ وما بعدها) ، (دار الكتب المصرية) ، شعراء النصرانية (١/٤٤١).
٦ الطبري (٢/١٩٣) ، (دار المعارف) .
٧ السجستاني ، المصاحف (١٣٨ وما بعدها) .

وقد اختلف العلماء في تفسير معنى جملة « يريد أن يعربه فيعجمه » الواردة في شعر ينسب لرؤبة ويقال للحطيئة ، هو :

الشعر صعب وطويل سلمه إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمه
زلت به الى الحضيض قدمه

وقوله :

والشعر لا يسطيعه من يظلمه يريد أن يعربه فيعجمه

فذهب بعضهم الى أن مراد الشاعر أنه يأتي به أعجمياً ، يعني يلحن فيه ، وقيل يريد أن يبيّنه فيجعله مشكلاً لا بيان له ، وقيل أزال عجمته بالنقط [1] .

والذي أراه أن قول العلماء : « العجم النقط بالسواد مثل التاء عليها نقطتان، يقال : أعجمت الحرف والتعجيم مثله » ، وقولهم : « معجم الخط هو الذي أعجمه كاتبه بالنقط ، تقول : أعجمت الكتاب أعجمه إعجاماً » [2] ، هو تعريف يجب أن يكون قد وضع بعد وضع الإعجام ، أي التنقيط ، فإذا كان الإعجام من وضع (أبي الأسود) الدؤلي ، فيجب أن يكون ظهوره منذ أيامه فما بعد، أما إذا كان قبله فيجب أن يكون من مصطلحات الجاهليين .

ويذكر علماء اللغة أن « أعجم الكتاب خلاف أعربه ، أي نقطه » فأزال الكاتب عجمة الكتاب بالنقط [3] . ومعنى هذا أن النقط قد أزال الغشاوة عن الحروف المعجمة ، أي المتشابهة في الشكل ، بوضع النقط فوقها ، فصارت حروفاً معربة واضحة . ولولا الإعجام لما استبان الكلام ، ولوقع سوء الفهم واللبس في كثير من الألفاظ التي ترد فيها الحروف المعجمة ، ففي الإعجام لبس ووقوع في خطأ، وفي اللحن مثل ذلك أيضاً ، ولهذا أرى وجود صلة كبيرة بين اللحن ، الذي هو الخطأ في الكلام ، بسبب الجهل بالاعراب . وقد رأيت قول العلماء : «أعجم الكتاب خلاف أعربه » ، أي وضحه وصححه بالنقط . فبين الاثنين ترابط في الأصل ، فالاعجام خلاف الاعراب ، واللحن خلاف الإعراب كذلك .

---

١ تاج العروس (٣٩٠/٨) ، (عجم) .
٢ تاج العروس (٣٩٠/٨) ، (عجم) .
٣ تاج العروس (٣٩٠/٨) ، (عجم) .

obeikandl.com

وقد صار النقط ، أو وضع الحركات على الحروف لإرشاد القارىء الى القراءة الفصيحة الصحيحة ، ضرورة لازمة ، بدونها قد يخطىء الانسان فهم المعنى ، وقد يقع في أخطاء جسيمة لو أخليت الكتابة من النقط والإعجام . وقد ضرب العلماء الأمثال على أخطاء وقع بها الناس بسبب طريقة الكتابة القديمة التي لم تكن تنقط الحروف ولا تعجمها ، فكان القارىء يقع في أخطاء .

والإعراب بعد ، لا يختص بالعربية وحدها ، بل نجد آثاره في لغات سامية أخرى ، وانما ظهر وعرف في عربيتنا ، لأن اللغات الأخرى قد ماتت في الغالب ، فلم يبق أحد من الناطقين بها ، لتبين كلامه ، ولأن نصوصها غير مشكلة ، وهي خالية من الحروف التي تدل على الشكل والحركات ، لذلك لا نستطيع التحدث عن وجود الإعراب بها . ولكن بعض النصوص البابلية تشير الى وجود الإعراب بها . واللاتينية مع انها من اللغات الآرية فهي لغة معربة ، يراعي الكاتبون والمتكلمون بها خصائص الإعراب ، واليونانية القديمة هي معربة كذلك . ويخيل لي ان معظم لغات الأدب في العالم القديم كانت تراعي الإعراب ، لترتفع بذلك عن ألسنة العامة ، ولتكون اللسان الرفيع الذي يخاطب الانسان به أربابه ، ثم خفت حدة الإعراب فيما بعد ، مجاراة لتطور العقل الانساني . ونجد معظم الشعوب في الوقت الحاضر ، تبسط لغتها وتختزل قواعدها وجمل كلامها ليتناسب الكلام مع عقلية السرعة التي أخذت تسيطر على الانسان الحاضر .

وما قلته عن اللغات الأخرى من صعوبة التكلم عن إعرابها ، بسبب عدم وجود نصوص مشكلة عندنا تشير الى طرق الإعراب بها ، ينطبق كذلك على اللغات العربية الجنوبية ، وعلى اللغات الأخرى ، مثل الصفوية ، والثمودية واللحيانية ، لعدم وجود الحركات بها أو العلامات الدالة على الإعراب . وخلو هذه اللغات من العلامات التي تقوّم الإعراب ، لا يمكن أن يتخذ دليلاً على عدم وجوده في تلك اللغات ، لأن العماد في الإعراب ، هو بالنطق في اللسان ، وهو ما لا يمكن استخراجه من الكتابة العربية الجنوبية ، فاللسان هو الذي يشكل ويحرك الألفاظ وفق مقتضيات قواعد الألسنة . أما النبطية ، وهي من اللهجات العربية الشمالية ، ففيها ظواهر بارزة تشير الى انها كانت لغة معربة ، وهي في نظري أقرب اللغات العربية الجاهلية الى عربية القرآن الكريم ، فالأسماء في النبطية ، معروفة في عربيتنا قليلة في العربيات الأخرى ، وهي قريبة من هذه العربية في أمور أخرى نحوية وصرفية .

اللحن :

من معاني اللحن : اللغة . « روي أن القرآن نزل بلحن قريش،أي بلغتهم . وفي حديث عمر رضي الله عنه : تعلموا الفرائض والسنة واللحن ، بالتحريك ، أي اللغة »[1] ، ومنه قول (عمر) : « تعلموا الفرائض والسنن واللحن ، كما تعلّمون القرآن »[2]. ومن معانيه الخطأ في الكلام . « قال أبو عبيد في قول عمر رضي الله تعالى عنه : تعلّموا اللحن ، أي الخطأ في الكلام لتحترزوا منه » ، وورد : « وأما قول عمر رضي الله عنه : تعلّموا اللحن والفرائض،فهو بتسكين الحاء ، وهو الخطأ في الكلام ... قال أبو عدنان : سألت الكلابيين عن قول عمر : تعلّموا اللحن في القرآن كما تعلمونه ، فقالوا : كُتب هذا عن قوم ليس لهم لغو كلغونا ، قلت : ما اللغو ؟ فقال : الفاسد من الكلام . وقال الكلابيون: اللحن : اللغة . فالمعنى في قول عمر : تعلموا اللحن فيه ، يقول : تعلموا كيف لغة العرب فيه الذين نزل القرآن بلغتهم »[3] ، « وجاء في رواية تعلموا اللحنَ في القرآن كما تتعلمونه ، يريد تعلّموا لغة العرب بإعرابها »[4] ، ووردت اللفظة بمعان أخرى . وقد أجمل العلماء ما جاء فيها من معان بستة معان : الخطأ في الإعراب ، واللغة ، والغناء ، والفطنة ، والتعريض ، والمعنى[5] .

وقد ذكر أن الرسول لما أرسل (سعد بن معاذ) ، وهو يومئذ سيد الأوس و (سعد بن عبادة) ، وهو يومئذ سيد الخزرج الى (كعب بن أسد)،وكان قد نقض عهده الذي عهده للرسول وبرىء مما كان بينه وبين رسول الله ، قال لهما : « انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ، فإن كان حقاً فالحنوا إليّ لحناً أعرفه ولا تفتوا في أعضاد الناس ، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس » ، فلما أتياهم وجداهم على أخبث ما بلغهما

---

١ اللسان (١٣/٣٨٠ وما بعدها) ، (لحن) ، تاج العروس (٩/٣٣١) ، (لحن) ، الفائق (٢/٩٩) ، (٢/٤٥٧) .

٢ الأمالي ، للقالي (١/٥) ، السيوطي ، الاتقان (٢/٢٦٠) .

٣ اللسان (١٣/٣٨٠ وما بعدها) ، (لحن) ، تاج العروس (٩/٣٣١) ، (لحن) .

٤ اللسان (١٣/٣٨١) ، (لحن) ، تاج العروس (٩/٣٣١) ، (لحن) .

٥ اللسان (١٣/٣٨١) ، (لحن) ، تاج العروس (٩/٣٣١) ، (لحن) .

عنهم ، نالوا من رسول الله ، « وقالوا : من رسول الله ! لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد » ، فلما عادا الى رسول الله قالا : « عضل والقارة . أي كغدر عضل والقارة » ، فاللحن هنا بمعنى الإيماءة والاشارة والرمز[1] ، فاللحـــن هنا أن تريد الشيء فتورى عنه[2] .

والذي أريده من اللحن ، الخطأ في الكلام ، والزيغ عن الإعـراب ، وهو معنى لا نستطيع فهمه من النصوص الجاهلية ، لخلو تلك النصوص من الحركات، ومن الاشارة الى قواعد لغاتها . ولذلك فلا مناص لنا لفهمـــه إلا بالرجوع الى الموارد الاسلامية . وهي تذكر أن اللحن بهذا المعنى ، لم يظهر إلا في الاسلام ، ظهر بسبب دخول الأعاجم في دين الله ، واختلاطهم بالعرب ، وأخذهم لغتهم واتصال العرب بهم ، فقسدت الألسنة ، وظهر اللحن بين الموالي وبين العرب . وقد عيب ظهوره في العربي ، حتى عير من ظهر اللحن على لسانه ، فلما فشا وكثر ، صار شيئاً مألوفاً حتى غلب على ألسنة الناس. وهم يذكرون ان العربي القح الأصيل ، لم يكن يخطىء في كلامه ، لأنه يتكلم عن طبع وسجيـة ، ومن كان هذا شأنه ، لا يقع اللحن في كلامه ، أو لأنهم كانوا يتأملون مواقع الكلام ويعطونه في كل موقع حقه وحصته من الإعراب عن ميزة وعلى بصيرة[3] .

يقول العلماء : وكان أول لحن ظهر بين العرب على عهد النبي ، فقـد رووا أن الرسول سمع رجلاً يقرأ فلحن ، فقال : ارشدوا أخاكم[4] ، أو ارشدوا أخاكم فإنه قد ضـــل[5] ، ثم فشا وانتشر في مواضع الإختلاط خاصة ، حيث اختلط العجم بالعرب ، كالعراق وبـــلاد الشأم ومصر ، حتى دخل أعمال الحكومة ، فأخطأ الكتاب في النحـــو ، وأفحشوا في الإعراب ، فكتب كاتب من كتاب (أبي موسى) الأشعري كتاباً فيه ، (من أبو موسى ...) أو ما شابه ذلك من خطأ في القول ، فكتب (عمر) الى عامله : « سلام عليك . أمـا بعد ،

---

١ الروض الأنف (٢/١٩٠) ، ابن هشام ، سيرة (٢/١٩٠) ، (حاشية على الروض).
٢ الأمالي ، للقالي (١/٦) .
٣ الرافعي (١/٢٤٠) ، « وبهذا الاعتبار نقطع بأن اللحن لم يكن في الجاهلية البتة » ، الرافعي (١/٢٤٢) .
٤ كنز العمال (١/١٥١) .
٥ ابن جني ، الخصائص (٢/٨) ، (دار الكتب) .

فاضرب كاتبك سوطاً واحداً ، وأخر عطاءه سنة »[1] : أو : « إذا أتاك كتابي هذا ، فاجلده سوطاً واعزله عن عملك »[2] ، أو « قنع كاتبك سوطاً »[3] ، أو: « ان كاتبك الذي كتب إليّ لحن ، فاضربه سوطـاً »[4] ، وذكر (الجاحظ) ، أن (الحصين بن أبي الحرّ) كتب الى (عُمر) كتاباً « فلحن في حرف منه، فكتب اليه عمر : أن قنع كاتبك سوطاً » .

وسبب ذلك انهم كانوا يرون ان اللحن عيـب مشين . قال « عبد الملك بن مروان : اللحن هجنة على الشريف ، والعجب آفة الرأي . وكان يقال : اللحن في المنطق أقبح من آثار الجدري في الوجه »[5] .

ولا يمكن تفسير قول القائل ان « اللحن بمعنى الخطأ محـدث ، لم يكن في العرب العاربة الذين تكلّموا بطباعهم السليمة »[6]،الا أن يكون مراده أن الجاهليين كانوا يتكلمون بطباعهم السليمة بلغاتهم ، كل يتكلم بلغته ، ووفق سجيته ولسانه الذي أخذه من بيته ، فهو ينطق وفـق ما سمع وحفظ ، فلا يلحن في الكلام بلسانه الذي أخذه من أهله ، وهو رأي أقول انه على الجملة مقبـول معقول . أما اذ أريد به ، أن العرب كانوا جميعاً يتكلمون بلسان واحد ، فلا يخطىء أحدهم فيه ولا يلحن ، فإن ذلك يتعارض مع قولهم بوجود اللغات ، وبأن تلك اللغات كانت تتبـاين في أمور كثيرة في جملتها قواعد في النحو والإعراب ، كما في (ذي) الطائية ، وفي اعراب المثنى بالألف مطلقاً ، رفعاً ونصباً وجـرّاً وذلك في لغة (بلحرث) و (خثعم) و(كنانة) ، فيقولون : جاء الرجلان ، ورأيت الرجـلان ، ومررت بالرجلان[7] ، وكما في (كم) الخبرية ، حيث ينصب (بنو تميم) تمييز (كم) ، ولغة غيرهم وجوب جره وجواز إفراده وجمعه ، وكما في إعراب (الذين) من أسماء الموصول إعراب جمع المذكر السالم في لغة

---

١ مراتب النحويين (٦) ، الرافعي (١/٢٤٣) .
٢ كنز العمال (٥/٢٢٤) ، حضرت عمر (١٣٧) ، (القسم العربي) .
٣ أدب الكتاب ، للصولي (١٢٩) ، حضرة عمر (١٣٨) .
٤ حضرت عمر (١٣٨) .
٥ البيان والتبيين (٢/٢١٦) .
٦ ابن فارس ، معجم مقاييس اللغة (٥/٢٣٩) .
٧ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١/١٤٤ وما بعدها) .

(هذيل) ، أو (عقيل) وفي قول بعضهم هذه النخيل وقول بعض آخر هذا النخيل الى غير ذلك من مواطن خلاف وتباين بحث فيها العلماء[1] ، لا مجال للبحث فيها في هذا المكان ، ووجود هذا الاختلاف ، هو دليل في حد ذاته على خروج القبائل على قواعد اللغة ، والخروج على القواعد هو اللحن .

لقد أقر علماء العربية بوجود خلاف بين القبائل المتكلمة بلهجات عربية شمالية، وقد أشرت الى مواضع ذكروها في هذا الباب ، وكشف علماء النحو عن خلاف في قواعد النحو ، في مثل اختلاف القبائل في التذكير والتأنيث ، كما في مثل الطريق والسوق والسبيل والتمر ، فهي ألفاظ مؤنثة عند أهل الحجاز ، وهي مذكرة عند قبائل أخرى ، وكشفوا عن أمور أخرى ، إن تكلم المتكلم أو كتب بها عدّ صدور ذلك لحناً منه ، فهل يعدّ العربي المتكلم بلهجة من هذه اللهجات المخالفة مخالفاً لقواعد العربية ، أي لحّاناً ، كما نعدّ الأعجمي الذي يقع في الخطأ نفسه ، أم نعدّه فصيحاً ، عربي اللسان والسليقة ؟ أما الأعجمي الذي يقع في الخطأ ذاته فنعده لحّاناً لحنة !

لقد ذكروا ان الرسول « حين جاءته وفود العرب ، فكان يخاطبهم جميعاً على اختلاف شعوبهم وقبائلهم وتباين بطونهم وأفخاذهم ، وعلى ما في لغاتهم من اختلاف الأوضاع وتفاوت الدلالات في المعاني اللغوية ، على حين ان أصحابه رضوان الله عليهم ومن يفد عليه من وفود العرب الذين لا يوجّه اليهم الخطاب، كانوا يجهلون من ذلك أشياء كثيرة ، حتى قال له علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه وسمعه يخاطب وفد بني نهد : يا رسول الله ، نحن بنو أب واحد ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره ؟ فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يوضح لهم ما يسألونه عنه مما يجهلون معناه من تلك الكلمات »[2] ، فهل يعقل بعد ، أن يقال إن العربي كان لا يلحن ولا يخطىء في كلامه ولا يزيغ عن العربية المبينة ، والعرب هم على ما هم عليه من اختلاف اللهجات ، الذي يدفع حتماً على وقوع اللحن ، لو تكلموا بالعربية القرآنية ، أي هذه العربية التي يسميها علماء اللغة لغة قريش ، والتي هي اللسان العربي المبين على تسمية القرآن لها .

---

١ الرافعي ، تاريخ آداب العرب (١/١٢٠ وما بعدها) .
٢ المزهر (١/٣٢٥) .

ثم كيف نفسر حديث : « ارشدوا أخاكم » ، أو « ارشدوا أخاكم فإنه قد ضل » مع قولهم إن العربي لا يخطىء في كلامه ولا يلحن ، لأنه يتكلم عن طبع وسليقة ، ولم يكن هذا الذي لحن أمام الرسول ، أعجمياً ، وانما كان عربياً ، فإذا كان الأمر كذلك ، فكيف وقع اللحن إذن ؟ ثم كيف نفسر خبر سماع الإمام (علي) أعرابياً ، وهو يلحن في القرآن ويقرأ : « لا يأكله إلا الخاطئين »[1]، أو خبر ذلك الأعرابي الذي قرأ « إن الله بريء من المشركين ورسوله » بالجر، لأن رجلاً من أهل المدينة أقرأه إياها على هذا النحو ، فبلغ ذلك (عمر) ، فأمر ألاّ يقرىء القرآن إلا عالم باللغة،وأمر أبا الأسود أن يضع النحو[2]، والأعراب هم لبّ العرب ، وصفوتهم في الكلام ، فكيف وقع هذا الأعرابي في اللحن يا ترى ؟ ثم كيف نفسر قول من زعم أن في القرآن آيات فيها لحن ، مثل : إن هذان لساحران[3] ، والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة[4] ، وان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون »[5] ، ومواضع أخرى تحتاج الى تأويل ليستقيم إعرابها[6] ، أو الى اصلاح املائها لتنجو من اللحن[7] .

ثم كيف اختلف قراء القرآن في نصب (الطير) في الآية : « يا جبال أوبي معه والطير » أو رفعها[8] ، واختلافهم في ضم الفاء أو فتحها في الآية : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم »[9] ، واختلافهم في بناء الفعل للمجهول أو للمعلوم في الآية : « الم . غلبت الروم »[10] ، وغير ذلك من مواضع اختلاف ، اختلف فيها القرّاء ، مع كونهم من العرب الأقحاح .

ثم كيف نفسر اضطراب العلماء وذهابهم مذاهب في قراءة الآية : « قالوا :

---

١ نزهة الألباء (٨) ، (محمد أبو الفضل ابراهيم) .
٢ المصدر نفسه .
٣ طه ، الآية ٦٣ .
٤ النساء ، الآية ١٦٢ .
٥ المائدة ، الآية ٦٩ .
٦ السيوطي ، الاتقان (٢/٢٦٩) .
٧ السيوطي ، الاتقان (٢/٢٧١) .
٨ سبأ ، ٣٤ ، الآية ١٠ ، تفسير الطبري (٢٢/٤٦ وما بعدها) .
٩ التوبة ، الآية ١٢٨ ، تفسير الطبري (١١/٥٥) ، تفسير الألوسي (١١/٤٧) .
١٠ سورة الروم ، الرقم ٣٠ ، الآية ١ وما بعدها .

إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم ويذهبا بطريقتكم المثلى »[1] ، وتأويلهم القراءة جملة تأويلات ، لأن القاعدة النحوية تقول : « ان هذين » بينما القراءة : « إن هذان » ، فعللوها جملة تعليلات ، منها أن هذه القراءة نزلت بلغة (بني الحارث بن كعب) ومن جاورهم يجعلون الاثنين ، أي المثنى في رفعها ونصبها وخفضها بالألف ، كما في قول بعض (بني الحارث بن كعب) :

فأطرق اطراق الشجاع ولو يرى مساغاً لناباه الشجاع لصمما

وقيل إن هذه القراءة ، هي قراءة بلحارث بن كعب ، وخثعم، وزبيد ومن وليهم من اليمن[2] . ونسبها (الزجاج) الى كنانة ، وابن جنى الى بعض بني ربيعة[3] .

ثم ما ورد في خبر آخر عن سعيد بن جبير ، من قوله : « في القرآن أربعة أحرف لحن : الصابئون[4] ، والمقيمين[5] ، وفأصّدّقَ وأكن من الصالحين[6] ، وإن هذان لساحران »[7] الى غير ذلك من أخبار . ثم ما ورد من قول (عثمان) : « إن في القرآن لحناً ، وستقيمه العرب بألسنتها » ، وأمثال ذلك[8] ، وما ذكر من أن (أبا بكر) ، كان يستحب أن يُسقط القارىء الكلمة من قراءته على أن يلحن فيها[9] ، أفلا يدل هذا الخبر ، على أن اللحن كان معروفاً ومتفشياً في عهد (أبي بكر) ، وما روي في رواية تقول : « لما كتبت المصاحف عرضت على عثمان رضي الله عنه ، فوجد فيها حروفاً من اللحن ، فقال : لا تغيروها فإن العرب ستغيرها ، أو قال ستعربها بألسنتها ، لو كان الكاتب من ثقيف

---

١ سورة طه ، الرقم ٢٠ ، الآية ٦٣ .
٢ تفسير الطبري (١٣٦/١٦ وما بعدها) .
٣ تفسير النيسابوري (١١٨/٦) ، (حاشية على تفسير الطبري) ، السيوطي ، الاتقان (٢٧٣/٢) .
٤ المائدة ، الرقم ٥ ، الآية ٧٢ .
٥ النساء ، الرقم ٤ ، الآية ١٦١ .
٦ المنافقون ، الرقم ٦٣ ، الآية ١٠ .
٧ سورة طه ، الرقم ٢٠ ، الآية ٦٣ ، السيوطي ، الاتقان (٢٧٣/٢) .
٨ المصاحف (٣٣) ، السيوطي ، الاتقان (٢٧٢/٢ وما بعدها) .
٩ الرافعي (٢٤٠/١) .

والمملي من هذيل لم يوجد فيه هذه »[1] ، ثم ما ورد من وقوع اللحن من عرب أقحاح ، ومنهم من ولي الحكم وادارة أمور المسلمين[2] ، ومنهم ابنة (أبي الأسود الدؤلي) التي لحنت أمامه ، فعمل باب التعجب على ما يزعمه الرواة[3] .

وتوحي الأحاديث الواردة في الحث على إعراب القرآن ، والكتب التي ألفها العلماء في إعرابه ، أن من العرب : من أهل مدر وأهل وبر ، من كان يقرأ القرآن بغير إعراب ، إما لأن لغته لم تكن معربة ، وإما لأن إعرابها كان لا يتجانس مع إعراب القرآن ، وسببه أن الجاهليين لم يكونوا يتقيدون جميعاً بقواعد الإعراب ، فمنهم من كان يتحلل منه ، ومنهم من يعمل به وفق قواعد لغته ولهجته ، ودليل ذلك قراءة الصحابة القرآن بألسنتهم ، مما سبب في ظهور مشكلة القراءات ، وهذا ما أخاف الصحابة ، وجعلها تخشى من احتمال ظهور قراءين مختلفة ، مما حمل (عثمان) على توحيد لغة القرآن ، وتدوين كتاب الله حسب التوصيات التي أعطاها الى اللجنة التي كلفها بتدوينه .

أضف الى ذلك ما نجده في الكتب من إجازة اصلاح اللحن والخطأ في الحديث. من مثل ما نسب الى الأوزاعي من قوله : « لا بأس بإصلاح اللحن والخطأ في الحديث » ، وقوله : « اعربوا الحديث فإن القوم كانوا عرباً » ، ومثل ما نسب الى (يحيى بن معين) من قوله : « لا بأس أن يقوم الرجل حديثه على العربية » والى (ابن أبي رباح) حين سئل عن الرجل يحدث بالحديث فيلحن، هل يحدث به كما سمع منه أم يعرب ، فقال لسائله : لا ، بل اعربه . وما ورد في أقوال العلماء في جواز أو عدم جواز اصلاح اللحن في الحديث ، واختلافهم فيه[4] ، هو دليل على أن من العرب من كان يقع في اللحن أيضاً ، وان اللحن لم يقع من الأعاجم وحدهم .

---

١ مفتاح السعادة (٢/٢٧٧) .

٢ « وزعم المدائني أن خالد بن عبدالله قال : ان كنتم رجبيون فانا رمضانيون . ولو لا أن تلك العجائب قد صحت عن الوليد ما جوزت هذا على خالد » ، البيان والتبيين (٢/٢١٦) .

٣ « كان الذي حداه على ذلك أن ابنته قالت له : يا أبت ما أشد الحر ، وكان في شدة القيظ . فقال ما نحن فيه ! فقالت : انما أردت أنه شديد . فقال : قولي : ما أشد ، فعمل باب التعجب » ، الاصابة (٢/٢٣٣) ، (رقم ٤٣٢٩) .

٤ محمود أبو رية ، أضواء على السنة المحمدية (١٠٨ وما بعدها) .

ثم ان من غير المعقول ألاّ يقع اللحن من أهل اليمن ومن بقية عرب العربية الجنوبية ، الـذين كانوا يتكلمون بألسنة عربية جنوبية ، رأينا أنها تختلف عن عربيتنا في مفردات الألفاظ وفي قواعد النحو والصرف .

إن كل من صدر منهم اللحن ، ممن أشرت اليهم وممن لم أشر ، كانوا من العرب ، منهم من كان من أهل المدر ، ومنهم من كان من أهل الوبر ، بهم بدأ اللحن ، أما لحن العجم ، فقد بدأ بعد اللحن الذي ظهر في أيام الرسول ، وفي أيام (عمر) بدأ بالطبع بالفتوح ، فلحن العرب اذن أقدم عهداً من لحن العجم ، يؤيد ذلك ما يرويه العلماء من وقوع الشعراء الجاهليين في أخطاء نحوية ، هي لحن وخروج على القواعد في نظرهـم . والشعـراء الجاهليون عرب ، ومن لسانهم استمد علماء النحو نحوهم وصرفهم . فقد زعموا ان (النابغة) أخطأ في قوله : « في أنيابها السم ناقع » ، ولحن لحناً شنيعاً ، وكان عليـه أن يقول : « في أنيابها السم ناقعاً »[1] ، أخطأ ولحن على زعمهم ،مع ان كلامه حجة عندهم ، واستشهدوا به في قواعد النحو والصرف .

وأخذ (حفص بن ابي بردة) ، وهو من أهل الكوفة ومن أصحاب (حمّاد) الراوية على (المرقش) ، انه كان يلحن ، زعم انه لحن في شعره ، وقد أشير الى زعمه هذا في شعر هجاء هجوه به ، هو :

لقد كان في عينيك يا حفص شاغل ... وأنف كثيل العود عما تتبع
تتبعت لحنـاً في كـلام مرقش ... وخلقك مبنيٌ على اللحن أجمع
فعيناك إقواءٌ وأنفك مُكفـأٌ ... ووجهك إيطاءٌ فأنت المرقع[2]

وزعم علماء الشعر ، أن (امرأ القيس) حامل لواء الشعر ، ومن جاء بعده من الشعراء ، مثل (النابغة) ، و (بشر بن أبي خازم) ، و (الأعشى)، أقووا في شعرهم ، والإقواء : هو اختلاف إعراب القوافي ، وهـو أن تختلف حركات الروي ، فبعضه مرفوع وبعضه منصوب أو مجرور . ويكثر وروده في

---

١ ضحى الاسلام (٢/٢٨٨) .
٢ الشعر والشعراء (٢/٦٠١) ، المرزباني ، معجم (٢٨٠) ، السمط (٣/٣٩) ، يوهان فك (٦٤) ، (فعينك اقواء) ، البيان والتبيين (٢/٢١٥) ، الشعر للشاعر « البردخت » ، وهو « علي بن خالد الضبي العكلي » ، العقد الفريد (٢/٤٨١) .

اجتماع الرفع مع الجر ، واما الإقواء بالنصب فقليـــل . وهو في نظرهم عيب[1] . وزعموا أن بعضاً من شعراء الجاهلية أكفأوا في شعرهم . والإكفاء ، المخالفة بين حركات الروي رفعاً ونصباً وجراً ، أو المخالفة بين هجائها ، أي القوافي ، فلا يلزم حرفاً واحداً تقاربت مخارج الحروف أو تباعدت ، ومثله أن يجعل بعضهـــا ميماً وبعضها طاء ، وقال بعضهم : الإكفاء في الشعر هو التعاقب بين الراء واللام والنون . وهو أحد عيوب القافية الستة التي هي : الإيطاء ، والتضمين ، والإقواء ، والإصراف ، والإكفاء ، والسناد[2] .

وقد روى أهل الأخبار قصة زعموا انها وقعت للنابغة ، وكان لا يعرف شيئاً عن إقوائه بشعره ، فلما وقعت له عرف به فعافه ، ذكروا ان الناس خافوا تنبيه الشاعر إلى إقوائه ، وبقي هو عليه ، حتى دخل يثرب ، فأرادوا إظهار عيبه له فأمروا قينة لهم ان تغنيه شعره ، فغنته :

أمن آل ميّة رائح أو مغتدي عجلان ذا زاد وغير مزود
زعم البوارح أن رحلتنا غدا وبذاك حدثنا الغراب الأسود[3]

ففطن اليه ولم يعد الى إقواء . « قال أبو عمرو بن العلاء: فحلان من الشعراء كانا يقويان ، النابغة وبشر بن أبي خازم ، فأما النابغة فدخل يثرب فغنى بشعره ففطن فلم يعد للإقواء ، وأما بشر ، فقال له أخوه سوادة : انك تقوي ، قال: وما الإقواء ؟ قال : قولك :

ألم ترَ أنّ طول الدهر يُسلي ويُنسي مثل ما نسيت جذامُ

ثم قلت :

وكانوا قومنـــا فبغوا علينا فسقناهم الى البلد الشآمِ

فلم يعد للإقواء »[4] .

---

١ تاج العروس (٣٠٧/١٠) ، (قوى) .
٢ تاج العروس (١٠٨/١) ، (كفأ) .
٣ الشعر والشعراء (١٠٦/١) ، (دار الثقافة) .
٤ الشعر والشعراء (١٩٠/١) ، (دار الثقافة) ، الخزانة (٢٦٢/٢) .

ورويت قصة إقواء (بشر بن أبي خازم) بشكل آخر ، فقد زعم ان أخاه (سوادة) قال له : إنك تقوي ، قال : وما الإقواء ؟ قال : قولك :

ألم ترَ أنّ طولَ الدهر يُسلي وينسي مثل ما نسيت جُذامُ

ثم قلت :

وكانوا قومنا فبغـوا علينا فسقنـاهم الى البلـد الشآمِ

فلم يعد للاقواء »[1] ، أو أن أخاه (سمير) ، قال له : « أكفأت وأسأت . فقال : وما ذاك ؟ »[2] .

وقد ذهبوا الى أبعد من ذلك ، فزعموا أن المصاحف لما كتبت « عرضت على عثمان ، فوجد فيها حروفاً من اللحن ، فقال : لا تغيّروها ، فإن العرب ستغيرها — أو قال ستعربها — بألسنتها ، لو كان الكاتب من ثقيف والمملي من هُذيل لم توجد هذه الحروف »[3] ، وقد كان كل من اختارهم الخليفة لكتابه القرآن من خالص العرب ، ولم يكن من بينهم من هو من المولدين أو الموالي ، وقد كانوا من الفصحاء الألباء ، فكيف وقع منهم اللحن إذن ؟

بل زعموا أن (عمر) ضرب أولاده لما لحنوا ، وأن (معاوية) كلم (عبيد الله ابن زياد) ، فوجده كيساً عاقلاً على انه يلحن فكتب الى والده بذلك[4]،وزعموا ان (الحجاج) كان يلحن ، زعموا انه لحن في القـرآن ، فقرأ : « إنا من المجرمون منتقمون »[5] ، وزعموا انه لحن في آيات أخرى[6] ، والحجاج من ثقيف، ولم يكن أعجمياً ، حتى يظهر اللحن منه ، مع انهم جعلوه أحيانـاً من أفصح العرب ، وممن لم يلحن في حياته في جدّ ولا هزل . قال (الأصمعي) : « أربعة لم يلحنوا في جد ولا هزل : الشعبي ، وعبـد الملك بن مروان ، والحجاج بن

---

١ الشعر والشعراء (١/١٩٠) ، الموشح ٥٩ ، الخزانة (٢/٢٦٢ وما بعدها) .
٢ مصادر الشعر الجاهلي (٤٩) .
٣ السيوطي ، الاتقان (٢/٢٧٠) .
٤ الفائق (٢/٩٩) ، البيان والتبيين (٢/٢١٠) ، الخزانة (٣/١٤) ، (بولاق) .
٥ البيان والتبيين (٢/٢١٨) ، (عبد السلام هارون) .
٦ ابن سلام ، طبقات (٦) ، نزهة الالباء (١٦ وما بعدها) .

يوسف ، وابن القرية . والحجاج أفصحهم »[1] . وزعموا ان (الوليد بن عبد الملك) ، وأخاه (محمد بن عبد الملك) كانا لحّانين[2] . ذكر ان (الوليد) خطب الناس يوم عيد ، فقرأ في خطبته « يا ليتُها كانت القاضية » بضم التاء ، فقال عمر بن عبد العزيز : عليكَ وأراحنا منك[3] . ورووا قصصاً عن لحنه . وذكر أن (عبد الملك) قال : « أضر بالوليد حبنا له ، فلم نوجهه الى البادية » يقصد انه كان يلحن بسبب عدم ارساله الى الأعراب ليأخذ عنهم اللسان الفصيح. وقد كان أخوه محمد لحاناً كذلك ، وذكر انه لم يكن في ولد عبد الملك أفصح من هشام ومسلمة[4] . قال (الجاحظ) : « وكان الوليد بن عبد الملك لحنة ، فدخل عليه أعرابي يوماً ، فقال : أنصفني من ختني يا أمير المؤمنين . فقال : ومن ختنك ؟ قال : رجل من الحي لا أعرف اسمه . فقال عمر بن عبد العزيز : ان أمير المؤمنين يقول لك : من ختنك ؟ فقال : هوذا بالباب . فقال الوليد لعمر : ما هذا ؟ قال : النحو الذي كنتُ أخبرتك عنه . قال : لا جرم : فإني لا أصلي بالناس حتى أتعلمه »[5] . وذكر (الجاحظ) أمثلة على اللحن[6] . وروى أن كتب (الوليد) كانت تخرج ملحونة . فسأل (اسحاق بن قبيصة) أحد موالي (الوليد) ما بال كتبكم تأتينا ملحونة وأنتم أهل الخلافة ؟ فأخبره المولى بقولي ، فإذا كتابٌ قد ورد عليّ : أما بعدُ فقد أخبرني فلان بما قلتَ ، وما أحسبك تشك أن قريشاً أفصح من الأشعرين ، والسلام »[7] .

وقد ورد في شعر (مالك بن أسماء بن خارجة الفزاريّ) قوله :

وحديثُ الذّهُ هو مما ينعت الناعتون يوزن وزنا
منطق صائب وتلحن أحيا نأ وخيرُ الحديث ما كان لحنا

وقد ذكر أنه لم يرد اللحن في الإعراب الذي هو ضد الصواب ، وإنما أراد

---

١ القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية (٥٨) .
٢ البيان والتبيين (٢/٢٠٥) .
٣ الرافعي (١/٢٤٦) .
٤ البيان والتبيين (٢/٢٠٤ وما بعدها ، ٢١٦) .
٥ المحاسن والاضداد (٦) .
٦ المصدر نفسه .
٧ البيان والتبيين (٢/٢٠٥) .

الكنايـــة عن الشيء والتعريض بذكره ، والعدول عن الافصاح عنـــه . قيل : تكلمت (هند بنت أسماء بن خارجة) ، أخت الشاعر المذكور فلحنت ، وهي عند الحجاج ، فقال لهـــا : أتلحنين وأنت شريفة في بيت قيس ؟! فقالت : أما سمعت قول أخي مالك لامرأته الأنصارية ؟ قال : وما هو ؟ قالت : قال :

منطق صائب وتلحن أحيـــا ناً وخير الحديث ما كان لحْنا

فقال لها الحجاج : إنما عنى أخوك اللحن في القول ، إذا كنّى المحدث عما يريد ، ولم يَعْنِ اللحن في العربية ، فأصلحي لسانك . غير أن منهم من رأى أن المراد بهذا اللحن ، اللحن المخالف لصواب الاعراب[1] .

وقد ذكر (السهيلي) ، أن الجاحظ قد أخطأ حين قال في كتابـــه (البيان والتبيـــين) ، ان الشاعر لم يقصد اللحن الذي هو الخطـــأ في الكلام وانما أراد استملاح اللحن من بعض نسائه ، وخطأه في هذا التأويل[2] ، قال : فلما حـدث الجاحظ بحديث (الحجاج) ، « قال : لو كان بلغني هذا قبل أن أُألف كتاب البيان ، ما قلت في ذلك ما قلت ! فقال له : أفلا تغيره ؟ فقال : كيف وقد سارت به البغال الشهب ، وانجد في البلاد وغار » . و « قال السيرافي : مـــا عرفت حقيقة معنى النحو إلا من معنى اللحن الذي هو ضده ، فان اللحن عدول عن طريق الصواب ، والنحو قصد الى الصواب »[3] .

وذكروا أن بعض شعراء الدولة الأموية كان يلحن ، وممن وقع منـــه اللحن (الفرزدق) . رووا أن (عبدالله بن يزيد الحضرمي) البصري ، كان ينتقـده ويتعقب لحنه ، فهجاه الفرزدق ، بقوله :

فلو كان عبدالله مولى هجوته ولكن عبدالله مولى المواليا

فقال له الحضرمي : لحنت . ينبغي أن تقول مولى موالٍ[4] .

---

١ أمالي المرتضى (١/١٥) ، الامالي ، للقالي (١/٥) .
٢ البيان والتبيين (١/١٤٧) .
٣ الروض الانف (٢/١٩٠) .
٤ الرافعي (١/٢٥٦) .

« وقالوا : تربع ابن جؤية في اللحن ، حين قرأ : هؤلاء بناتي هنّ أطهرَ لكم » ، وجعلوه حالاً ، يعني : أطهر . وليس هو كما قالوا ... »[1] ، و « تكلم معاوية بن صعصعة بن معاوية يوماً ، فقال له صالح بن عبد الرحمن : لحنتَ . فقال له معاوية : أنا ألحن يا أبا الوليد ، والله لنزل بها جبريلُ من الجنة »[2] .

وقد فشا اللحن وانتشر حتى بين العلماء ، وبين علماء النحو واللغة أيضاً، حتى غلط بعضهم بعضاً ، ونسب بعضهم اللحن الى البعض الآخر ، قال (ابن فارس) : « وقد كان الناس قديماً يجتنبون اللحن فيما يكتبونه أو يقرأونه اجتنابهم بعض الذنوب . فأما الآن ، فقد تجوزوا حتى إن المحدّث يحدث فيلحن،والفقيه يؤلف فيلحن ، فإذا نُبّها قالا : ما ندري ما الإعراب ! وانما نحن محدثون وفقهاء »[3] . ولما كثر اللحن في الحديث ، جوزوا إعرابه . قال (الأوزاعي) : « لا بأس بإصلاح اللحن والخطأ في الحديث » ، وقال أيضاً : « اعربوا الحديث فإن القوم كانوا عرباً » . وقال (النضر بن شميل) : « كان هشيم لحاناً ، فكسوت لكم حديثه كسوة حسنة، يعني بالإعراب »[4] .

وبعد ، فقد رأيت من روايات أهل الأخبار أنفسهم ، أن اللحن لم يكن قاصراً على العجم ، بل كان قد عرف بين العرب كذلك ، وعلى هذا يجب ألا نلقي مسؤولية ظهوره على الأعاجم ، بل على العرب أولاً ، لأنهم هم الذين بدأوا باللحن ، بدأوا به قبلهم بأمد طويل ، لحنوا في الجاهلية ، أي قبل دخول العجم في الاسلام . فنحن نظلم الأعاجم اذن ، إن ألقينا على عاتقهم مسؤولية إشاعة اللحن بين العرب . ولكن هل يعقل وقوع اللحن من عرب كالجاهليين ، ومن شعراء فحول ، استمد علماء اللغة قواعد النحو والصرف من شعرهم مثل (النابغة) الشاعر المعظم ، أو من غيره ؟ لقد سبق أن ذكر علماء اللغة أن العربي ، لا يزال في كلامه وحاشا له أن يلحن أو يخطىء في لسانه ، لأنه إذا تكلم تكلم عن سليقة وطبع،وقد حماه الله من الوقوع في زلل الكلام ! إذن فكيف

---

١ مجالس ثعلب (٤٣) .
٢ مجالس ثعلب (٤٧) .
٣ الصاحبي (٦٦) .
٤ أبو رية ، أضواء على السنة المحمدية (١٠٨ وما بعدها) .

نفسر ما ذكروه من وقوع النابغة في اللحن ، ومن وجود الإقواء في شعره وفي شعر غيره ، ومن ظهور اللحن في أيام الرسول ؟ هل نرجع ذلك الى خطأ الرواة في رواية شعر النابغة وأمثاله ، أو نرجع ذلك الى التزوير ، فنقول إن ذلك الشعر مفتعل ، وإنه ليس من شعر النابغة ، وإنما هو شعر منحول وضع عليه ، ومن ثم وقع الخطأ . ولكن الذي نعرفه أن من كان ينحل العرب الشعر وينسبه للجاهليين ، كان من أتقن الناس لشعر الجاهلية ومن أعرف الناس بالعربية ، ومن البارعين الحاذقين بقواعدها ، وأناس على هذا الطراز من الفهم والعلم ، هل يعقل وقوع مثل هذا الغلط منهم ؟ أو هل نرجع ذلك الى الخطأ في التدوين والاستنساخ ، ولكن كيف غفل العلماء من النص على ذلك ؟

وجوابي أن القول بأن اللحن بمعنى الخطأ في الكلام ، يستوجب وجود لغة فصيحة ذات قواعد نحوية وصرفية مقدّرة ومقننة وثابتة تعدّ اللغة الفصيحة العالية في نظر أصحابها ، من يخالف قواعدها يعدّ لحاناً لا يحسن القول ولا الكلام . وهو قول لا يعارضه أحد بالنسبة الى وجوده في الاسلام ، بعد أن فرض الاسلام دين الله على المؤمنين به كتاباً سماوياً ولساناً عربياً مبيناً ، تثبتت قواعد نحوه وصرفه في الاسلام . فمن سار عليها عدّ فصيحاً ، ومن خالفها عد لحاناً عامياً . أما بالنسبة لأهل الجاهلية ، فالقول بوجود اللحن عندهم ، يقتضي التسليم بوجود لغة فصيحة عليا لديهم ، لها قواعد مقررة ، من تكلم وفقها عد فصيحاً ، حسب درجة إعرابه وملكته في اللغة ، ومن خالفها عد عامياً جلفاً . وقد أكد علماء اللغة ، وجود هذه العربية الفصيحة ، التي هي عندهم عربية قريش ، عند ظهور الاسلام ، وقالوا : إن بها كان نزول عربية القرآن ، وبها نظم الشعر الجاهلي ، وبها نثر الكلام الجاهلي المنثور . أما اللحن ، فقد أنكروا وجوده ، ولم يسلموا بوقوعه ، وحجتهم ما ذكرته من أن العربي فصيح بطبعه ، اذا تكلم تكلم عن سجية فيه وسليقة ، لم يلحن ولم يخطىء في كلامه في الجاهلية ، الى أن كان الاسلام ، فاختلط العرب بالأعاجم ، ودخل الغرباء بين العرب ، ففسد الطبع وظهر الخطأ في اللسان ، وفشا اللحن .

وقد يعقل تصور وجود هذه العربية الفصحى ، اذا افترضنا — مع المفترضين الأخباريين — ان تلك العربية ، هي عربية أهل مكة ومن عاش حولهم ، وانها كانت عربية قريش ، وأن المتكلمين بها كانوا بشراً عصموا عن الخطأ في اللسان

وجبلوا على التكلم بها على الفطرة ، ولكننا لا نستطيع القول انها كانت عربية كل عرب جزيرة العرب ، إذ رأينا العرب الجنوبيين ، وقد كانوا يتكلمون بلغات أخرى ، ووجدنا عرب أعالي الحجاز ، ولهم ألسنة تباين عربية القرآن ، ورأينا للقبائل لهجات ، تختلف بدرجات عن هذه العربية . فكيف يتصور اذن اتفاق العرب كلهم على التكلم بلسان قريش ، وبغير خطأ أو زلل في اللسان .

وفي نفي علماء اللغة وجود اللحن عند الجاهليين تعارض مع رواياتهم القائلة بوجود الإقواء والإكفاء في شعر بعض الشعراء الجاهليين ، وبلحن (النابغة) في قوله : « في أنيابها السم ناقع » ، وبلحن الأعرابي في حضرة الرسول ، وبتباين لغات العرب ، تبايناً تحدثت عنه في فصل (لغات العرب) وقد وقع في كثير من صميم خصائص اللغات ، ومن بينها أمور تخص قواعد الإعراب ، وفيه تعارض أيضاً مع القرارات الشهيرة والشاذة للقرآن ، وبينها أمور تخص قواعد النحو والصرف والإعراب ، وفيه تعارض مع ما ذكروه من أن « أطراف الجزيرة لم تكن خالصة العروبة في القديم ، بل كان أهلها مغلوبين على أمرهم ؛ فلم يكن لهم من معنى اللغة إلا تعاور المنطق والاستبداد بالكلمات يتلقفونها ممن حولهم ، لأن ملكات الوضع العربي فيهم غير صحيحة ، وشروطه غير تامة،وليس كل عربي الجنس عربي اللسان ، وإلا فما بال الحميريين ومن قبلهم من الأمم السالفة ؟»[1].

وكيف يعقل نفي اللحن عن العرب مع وجود اللغات ، ووجود التعارض والإختلاف البين بين قواعد هذه اللهجات ، هل يعقل أن يتكلم العربي الجنوبي، باللغة العربية الفصيحة من غير خطأ ولا لحن ، ولسانه غير لساننا ، وعربيته غير عربيتنا ، وقواعده على خلاف قواعدنا ، وإعرابه على خلاف إعرابنا ، كما أثبت ذلك بالبرهان القاطع من الكتابات الجاهلية ، وبأقوال علماء العربية أنفسهم ، وفي مقدمتهم (أبو عمرو بن العلاء) ، القائل : « ما لسان حمير بلساننا ، ولا لغتهم بلغتنا » . ثم اننا إذا أخذنا القراءات المتنوعة التي قرىء بها القرآن ، والشواهد الشعرية الكثيرة التي أوردها علماء العربية والنحو على الشواذ ، وما يذكره العلماء من خلاف في النحو ، فإننا لا يمكن تفسير خروجها على القواعد إلا بأنها أثر من أثر بقايا اللهجات . وخروجها على القواعد ، هو لحن . ومن خرج على

---

١ الرافعي (١/٢٥٨) .

القواعد عدّ لحاناً ، مهما كان عصره أو جنسه ، جاهلياً كان أم مسلماً ، عربياً كان أم أعجمياً ، لأن اللحن لا يختص بعصر أو جنس .

ان ما دعوه باللحن ، وما أخذوا الأعاجم عليه ، من عدم تمكنهم من النطق ببعض الحروف ، أو من وقوعهم في أخطاء نحوية ، نراه قد وقع للعرب الفصحاء في الجاهلية وفي الإسلام ، فما كان ينطقه بعض العرب من اشمام الضاد صوت الزاي ، أو من النطق بالجيم (كافاً) على اللهجة المصرية ، يعدّ لحناً ، إذا صدر من أعجمي ، اما ان صدر من عربي ، فلا يقال لذلك لحناً ، بل يقال انه لغة من لغات العرب . واذا تصورنا ان عربية الجاهليين ، كانت عربية عالية واحدة ، على نحو ما يراه أهل الأخبار وعلماء اللغة ، وجب اعتبار هذه اللغات لغات عامية ، المتكلم بها خارج على قواعد اللغة ، فهو ممن يلحن ويخطىء سواء كان عربياً ، أم أعجمياً ، جاهلياً أم اسلامياً ، فنحن نتكلم هنا عن اسلوب كلام ، لا عن رسّ وأصل .

اننا حين نقول ان اللحن لم يكن معروفاً بين أهل الجاهلية ، نكون قد حصّناهم بالعصمة : بعصمة اللسان ، ونكون قد جعلناهم بذلك شعباً مختاراً ، فضل بعصمة لسانه على ألسنة سائر البشر،ولكن العلم لا يعرف عصمة ولا حصانة في لسان ، وهو يرى ان اللحن لا بد وأن يقع عند أي شعب ، أو قوم ، أو قبيلة ، حتى ان كانت القبيلة في سرة البادية ، وفي معزل ناء ، لأن الطبيعة توجد من اختلاف قابليات أفراد القبيلة ومن اختلاف مستوى عقلياتهم وثقافاتهم وتباعد سكنهم بعضهم عن بعض ، خروجاً على اللسان ، فيظهر اللحن الشاذ ، ويبرز النشاز في اللغة ، مهما كان موطن هذه القبائل ، في جزيرة العرب أو في أي موضع آخر من العالم ، فاللحن ، أي التبلبل في الألسنة من الأمور الطبيعية ، التي توجدها طبيعة البشر وطبيعة الاقليم ، وأمور أخرى بحث فيها علماء اللغة والاجتماع ، ولا يمكن أن يكون العرب بمنجاة منها !

لقد تحير (السيوطي) وغيره في تفسير خبر ورد عن (سعيد بن جبير) من انه « كان يقرأ : والمقيمين الصلاة ، ويقول : هو لحن من الكاتب » . فقال: « وهذه الآثار مشكلة جداً ، وكيف يظن بالصحابة أولاً انهم يلحنون في الكلام فضلاً عن القرآن ، وهم الفصحاء اللدّ ! ثم كيف يظن بهم ثانياً في القرآن الذي تلقوه من النبي صلى الله عليه وسلم ، كما أنزل ، وحفظوه ، وضبطوه ، وأتقنوه»

ثم كيف يظن بهم ثالثاً اجتماعهم كلهم على الخطأ وكتابته ! ... الخ »[1] ، وفي بعض هذه القراءات خطأ حصل من الكتابة ، قال « هشام بن عروة عن أبيه ، قال : سألت عائشة عن لحن القرآن عن قوله تعالى : إن هـذان لساحران[2] ، وعن قوله تعالى : والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة[3] . وعن قوله تعـالى : إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون[4] ، فقالت : يا ابن أختي، هذا عمل الكتّاب اخطئوا في الكتاب »[5] ، أي من الرسم ، وهو في الأكثر ، فهذا الخطأ في الرسم القديم للكتابة ، هو الذي جعل العلماء يسمونه لحناً ، وهو ليس بلحن في الأصل، وانما جاء اللحن من قراءة القراء بألحانهم ، أي على حسب لغاتهم،وإلا فلا يعقل تطاولهم على القرآن بقراءتهم له قراءة مخالفة للإعراب ولما نزل به الوحي. وهكذا كان الأمر بالنسبة للمواضع الأخرى مثل : « اثنتا عشرة عيناً »[6] ، فقد قرىء بسكون الشين وهي لغة تميم » ، وكسرها وهي لغة الحجاز ، وفتحها وهي لغة[7]، ومثـل (الصراط) ، فقد قرأت بالسين وبالصاد ، والقراءتان لهجتا قبائل ، ومثل (حتى) ، فقد قرئت (عتى) ، قرأها (ابن مسعود) على لسانه ، إذ كان من هذيل .

وقد ذكر (المعري) أمثلة على قراءات في القرآن قرأها علماء مشهورون مثل (حمزة بن حبيب)،هي منكرة في نظر غيره من العلماء ، « ينكرها عليه أصحاب العربية، كخفض الأرحام في قوله تعالى : واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ، وكسر الياء في قوله تعالى : وما أنتم بمصرخي ، وكذلك سكون الهمزة في قوله تعالى : استكباراً في الأرض ومكر السيء »،وجاء بأمثلة أخرى من قراءات غيره للقرآن[8].

والخلاف الذي نلاحظه في أمور النحو بين علماء أهل البصرة وعلماء أهل الكوفة، في مثل عمل الأسماء والأدوات : أدوات الجرّ ، أو الخفض ، وأدوات النصب، وأدوات الجزم ، وأمثال ذلك ، هو في حدّ ذاته دليل على وجود إعراب متعدد

---

١ السيوطي ، الاتقان (٢/٢٧٠) .
٢ طه ، ٦٣ .
٣ النساء ، الآية ١٦٢ .
٤ المائدة ، الآية ٦٩ .
٥ السيوطي ، الاتقان (٢/٢٦٩) .
٦ البقرة ، الآية ٦٠ .
٧ السيوطي ، الاتقان (٢/٢٧٧) .
٨ رسالة الغفران (٣٦٧ وما بعدها) .

للعرب ، وقف العلماء على شيء يسير منه ، فوقعوا من ثم في بلبلة من أمره ، بسبب عدم اهتمامهم بأمر تلك اللغات ، واقتصارهم في جمعهم قواعد النحو على لهجات الأعراب الذين اتصلوا بهم ، فظهر لهم وكأنه نشاز ، ولو فطنوا يومئذ الى أنه من إعراب لغات ، لكان حكمهم حكماً آخر ولا شك . ومن هؤلاء الأعراب الذين أخذ عنهم البصريون : قيس ، وتميم ، وأسد ، « فإن هؤلاء هم الذين أخذ عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل في الغريب ، وفي الإعراب ، والتصريف . ثم هذيل ، وبعض كنانة ، وبعض الطائيين ، ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم »[1] ، والقبائل المذكورة باستثناء الطائيين ، هم من مجموعة (مضر) ، وليس فيها قبيلة من (ربيعة) ، لذلك نستطيع القول ان العربية قد بنيت على لهجات مضر ، وحيث أن علماء اللغة أهملوا لغات القبائل الأخرى وبينها قبائل من مضر كذلك ، فلم يأخذوا منها إلا عرضاً ، تولد من عملهم هذا بناء العربية على تلك اللهجات وبموجب اجتهاد واستقصاء أولئك العلماء، فظهر من أجل ذلك الغريب والنشاز ، والاختلاف في الإعراب ، الذي أشار الى قسم منه العلماء ، وهو الذي احتاجوا اليه للاستشهاد به في الشواهد والمناظرات ، وأكثره من لغات مضر ، وأهملوا الباقي ، ولو هم سجلوا كل ما عرفوه من نشاز لتجمع من ذلك تراث كبير كثير من تراث اللغات الجاهلية من اختلاف في لغة وقواعد اعراب وصرف .

لقد تمسكت القبائل بقواعد ألسنتها حتى في الاسلام ، فكان أفرادها ينطقون بلهجتهم ، من ذلك ما ذكره (الزجاجي) من اختلاف (عيسى بن عمر) الثقفي ، و (أبو عمرو بن العلاء) في رفع أو نصب : « ليس الطيب إلا المسك » ، ومن احتكامها الى (أبي المهدي) ، فلما ذهبا اليه وجداه لا يرفع ، فلما حاولا اقناعه بالرفع ، أبى عليهما ذلك وقال : « لا ، ليس هذا من لحني ولا من لحن قومي » ، فلما ذهبا الى (المنتجع) التميمي ، وجداه لا ينصب وأبى إلا الرفع ، وذكر (الزجاجي) : « ليس في الأرض حجازي إلا وهو ينصب ، ولا في الأرض تميمي إلا وهو يرفع »[2] . وقع ذلك في الاسلام وبعد تثبيت القواعد ، وكان هذا حال قبائل الحجاز ، وحال تميم في الجاهلية ولا شك،

---

١ السيوطي ، الاقتراح (١٩) .
٢ مجالس العلماء (١ وما بعدها) .

فهل يعد هذا الاختلاف دلالة على عدم وجود اللحن عند أهل الجاهلية ، أم يعدّ دليلاً على وجوده عندهم ؟

لقد أدى اقتصار العلماء في أخذهم العربية عن القبائل التي ذكروها وفي تمسكهم برأيهم في أن تلك القبائل ، هي صاحبة اللغة الفصيحة ، الى نبذ اللهجات العربية الأخرى ، لاعتبارهم اياها لهجات مستقبحة ، ولغات حشوية ، فخسرت العربية بذلك خسارة كبرى ، وظهر بسبب ذلك التنابذ في مذاهب علماء العربية ، بسبب اعتمادهم على لغات معينة محدودة ، وليس على كل اللغات العربية القريبة من لغة القرآن ، ليتمكنوا بذلك من استقرائها كلها واستنباط القواعد الكلية منها .

ومن جملة الأمور التي يجب أن نشير اليها ونتنبه اليها ، هو أن علماء العربية حين كانوا يشيرون الى لهجة من اللهجات ، مثل لهجة أهل الحجاز ، أو لهجة هذيل ، أو تميم ، وأمثالها ، كانوا يشيرون اليها بالتعميم ، مثل : جاء هذا على لغة أهل العالية : أو على لغة أهل الحجاز ، أو على لغة تميم ، مع ان حكمهم هذا لم يؤخذ من دراسة لغة القبيلة المشار اليها ، وانما أخذ من لسان أعرابي أو أكثر ، بينما الحكم على منطق إنسان واحد أو اثنين أو ثلاثة ، لا يمكن أن يتخذ حجة للحكم على منطق قبيلة بأكملها ، أضف الى ذلك أن القبائل الكبيرة ، كانت موزعة منتشرة ، والحجاز ، وحده ذو قبائل كثيرة ، متعارضة اللغات ، فكيف يقال : جاء هذا على لغة أهل الحجاز ، وكانت أسد وتميم متجزئة منتشرة في مناطق واسعة ، وهذا مما جعل لهجاتها تتأثر بالاقليمية وبالجوار ، فلم يكن لها لسان واحد ، غير أن علماء العربية لم يفطنوا الى هذه الأمور ، فوقعوا من ثم في أخطاء ، فأخذوا من بعض تميم ، ونسبوا ما أخذوه على كل تميم مثلاً .

ثم إنهم لم يستخلصوا النحو من القرآن رأساً ، وقد كان عليهم الاعتماد عليه أو لأنهم انما اتخذوا النحو لصيانة اللسان من الخطأ في القرآن وفي لغة التنزيل ، وإنما مالوا عنه الى الشعر ، والى كلام أعراب من قبائل معينة وثقوا بصحة كلامهم وزاد ابتعادهم عن الاسلوب العلمي ، بأخذهم بالعصبية العلمية ، فظهرت الآراء المتعصبة للمدن وللعلماء ، فهذا رجل محب للبصرة ، مفرط في حبها ، لا يقدم على علمائها عالم ، وهذا كوفي متعصب لنحو الكوفة ولعلم الكوفة ، لا يقدم على أهل الكوفة أحداً . ثم زاد هذا التعصب التعصب للعلماء ، فهذا تلميذ عالم يتعصب له ، ويأخذ برأيه كأنه رأى نزل من السماء ، وهذا عالم كبير يعيب علم عالم

منافس له ، ويتهجم هو وتلامذته عليه ، وهذا نحوي يعيب نحو الآخرين ، وقد دفعت هذه العصبية ، بعض العلماء الى الابتعاد عن العلم ، باللجوء الى الوضع والافتعال والاتهام ، لإفحام الخصوم ، حتى جاء بعضهم بشواهد نحوية وصرفية مفتعلة ، وبشهود من الأعراب ، تكلموا باطلاً لتأييد عالم على عالم ، وفي المسألة الزنبورية التي وقعت بين سيبويه والكسائي ، وفي مجالس الجدل التي تجادل فيها العلماء في محضر الخلفاء في قضايا النحو واللغة والشعر أمثلة عديدة على ما أقول[1] .

وعندي أن ما نسب الى بعض الشعراء الجاهليين من وقوعهم في أغلاط نحوية أو لغوية أو شعرية ، لم يكن خطأ بالنسبة لهم ، وإنما بان الخطأ عند علماء العربية ، حين قاسوا الشعر بمقياس واحد ، هو العربية التي جمعوا قواعدها ودونوها في الاسلام ، والعروض الذي ضبطه (الخليل) ومن جاء بعده ، ولو كانوا قد درسوا لهجات القبائل ، وعلموا أن الشعراء ، كلهم أو بعضهم كان ينظم شعره بلسانه ، وان الشعر الجاهلي ، جاء بألسنة متعددة ، لعلموا إذن سرّ وقوع هذا الاختلاف في الشعر ، ولأراحوا أنفسهم من دراسة كثير من هذا الغريب والشاذ الذي أدخلوه كتب النحو واللغة ، بعد صقل الشعر وتهذيبه . وقد فطن الى ذلك (المعري) ، فاعتذر عما نسب الى (امرىء القيس) من خروج عن القواعد بسوء الرواية وبالتصحيف[2] ، وبأنهم في الجاهلية كانوا لا يعدّون ذلك خروجاً على قاعدة ، وانما كان ذلك شيئاً مألوفاً عندهم،فلما جاء « المعلمون في الاسلام » « غيروه على حسب ما يريدون »[3] ، وجعله يقول عن (الاقوياء) : « لا نكرة عندنا في الإقواء[4] واعتذر عما نسب الى غيره من الشعراء من عيوب أحصاها علماء الاسلام عليهم ، بأن قال إن هذه لم تكن من العيوب في أيامهم ، وإنما هي صارت عيوباً في الإسلام .

لقد اعتمد علماء العربية على الشعر الجاهلي وعلى لغات العرب التي وثقوا منها في جمع قواعد العربية وتثبيتها ، كما استشهدوا بالقرآن ، الذي نزل بلسان عربي مبين ، والذي ثبت العربية . أما (الحديث) ، فقد اختلفوا في جواز الاستشهاد

---

١ راجع مجالس العلماء
٢ رسالة الغفران (٣١٣ وما بعدها) .
٣ رسالة (٣١٧ وما بعدها) .
٤ رسالة (٣٢٠) .

به ، وذلك لأن الحديث لم ينقل كما سمع من النبي وانما روي بالمعنى ، ولهذا فإن أئمة النحو المتقدمين من المصرين : البصرة والكوفة لم يحتجوا بشيء منه ، وقد جوز بعض العلماء الاستشهاد به على تقدير التسليم بأن النقل كان بالمعنى ، انما كان في الصدر الأول ، وقبل تدوينه في الكتب وقبل فساد اللغة ، وغايته تبديل لفظ بلفظ ، ولهذا يجوز الاحتجاج به ، لأن السلائق العربية لم تكن قد فسدت بعد . وموضوع الخلاف ، هو ان النقل لم يكن بالحرف ، وانما بالمعنى ، ولو كان بالأول لما وقع الخلاف في وجوب الاستشهاد به ، ولجرى ذلك مجرى القرآن الكريم في اثبات القواعد الكلية بموجبه. قال « سفيان الثوري : إن قلت لكم اني أحدثكم كما سمعت ، فلا تصدقوني ، انما هو المعنى . ومن نظر في الحديث أدنى نظر علم العلم اليقين انهم يروون بالمعنى »[1] . وقد وقع اللحن كثيراً فيما روي من الحديث لأن كثيراً من الرواة كانوا غير عرب بالطبع ويتعلمون لسان العرب بصناعة النحو، فوقع اللحن في كلامهم وهم لا يعلمون، ودخل في كلامهم وروايتهم غير الفصيح من لسان العرب ، فدخل من ثم هذا اللحن في الحديث، ولهذا امتنع علماء المصرين من الاستشهاد بالحديث في النحو . وقد جوز بعض المتأخرين الاستشهاد بالأحاديث والأمثال النبوية الفصيحة ، ولم يجوزوا الاستشهاد في غير ذلك[2] للسبب المذكور .

هذا وقد ألّف العلماء كتباً عديدة في إعراب القرآن وفي معانيه وغريبه، وصل بعض منها الينا . وقد أشار (ابن النديم) الى أسماء عدد من تلك المؤلفات[3] . وهي مرجع هام بالنسبة لعلماء العربية ، لورود آراء لغوية ونحوية قيّمة فيها، تفيد في شرح النحو العربي .

---

١ الخزانة (١/٥ وما بعدها) .
٢ الخزانة (١/٦ وما بعدها) .
٣ الفهرست (٦٠) .